

(الميتاتداولية)

أ/ لطرش بولرباح، جامعة الجلفة

ملخص:

تهدف المقالة إلى التعريف بمفهوم (ميتابراغماتيك) الذي يبدو أنه نادراً ما يتم تعميمه في الكتابات العربية المعاصرة. على الرغم من أنه كان معروفاً لأكثر من عقود في الفكر اللغوي الغربي. هذا المفهوم هو حقل جديد من البحوث، وأداة إجرائية في التحليل اللغوي بشكل عام وعملي على وجه الخصوص. لهذا السبب، يجب تقديم هذا المصطلح واستجوابه من منظور التراث العربي. لذلك أريد أن تكون هذه المقالة مدخلات مفاهيمية متواضعة، مما يحفز الباحثين على النظر فيه. كلمات مفتاحية: الميتاتداولية، التراث العربي، الفكر الغربي

Abstract:

The article aims to introduce the concept of *Metapragmatics*, which appears to be rarely circulated in the contemporary Arabic writings. Although it has been known for more than decades in the western linguistic thought.

This concept is a new field of research, and a procedural tool in the linguistic analysis in general and pragmatic in particular.

For this reason, this term must be presented and questioned from the perspective of Arab heritage. So I want this article to be a modest conceptual input, which motivates researchers to look into it.

تمهيد:

منذ أن أدرج هوكيت (Charles F. Hockett) وصف الانعكاسية، ضمن صنفه خصائص اللغة الطبيعية النوعية؛ و صاغها في مبدأ، يقول فيه: الانعكاسية، في اللغة، هي مُكنة المرء من أن يتواصل بشأن التواصل²⁴¹. و منذ أن بيأ رومان ياكوبسون مفهوم الميتالغة "Metalangage" و ما تولد عنها من مشتقات مثل (metalangue-metalinguistique) في حقل اللسانيات^{**}.

انفتح المجال لمفاهيم أخرى، تقوم على تفعيل خاصية الانعكاسية، و تستدعي السابقة الاغريقية (meta) لنحت مصطلحات من قبيل: الميتانص - الميتاخطاب - الميتامعجم - الميتاسيميائية - الميتانظرية - الميتامعرفة. و الميتاتداولية (Metapragmatics) واحدة منها، غير أنها لم تحظ - في حدود ما أعلم - بعرض أو استعمال في الثقافة اللسانية العربية

و لما كان المقال لا يستهدف فعل الترجمة، كان من باب الترك الأمور إلى أهلها أن أكتفي بتعريب مصطلح (Metapragmatics) بالميتاتداولية، دون المجازفة بألفاظ من قبيل: تداولية التداولية - التداولية الواصفة - ما فوق

-Carles F.Hockett.. **The Problem of universals in language** 1-29.in.Universals of Language. Joseph h. greenberg.2nd 241 editon.M.I.T press.1966.p13.

^{**} صاغ هوكيت و ياكوبسون مفهومهما في الفترة ذاتها تقريبا، أي في بداية الستينيات.

التداولية – ما بعد التداولية – ما وراء التداولية – ورتداولية – القول على القول* – تداولية انعكاسية – التداولية الشارحة وغيرها كثير²⁴².

فهل الميتاتداولية شكل من أشكال الوصف الميتالساني ؟ و هل تنحصر وظيفتها في الوظيفية التحقيقية²⁴³ ؟ و قبل هذا و ذلك ما الميتاتداولية ؟

لعل أولى المحاولات لتحديد مفهوم الميتاتداولية ما نشرته كلوديا كافي (Claudia Caffi) في عام 1984 ، ثم نقحته في كثير من المناسبات. ثم جاء بعدها من محّص المفهوم نظيرا و تجربيا .

فكان من المفيد التعرض لهذا المصطلح من باب التعريف بمفهومه ، و اختبار نجاعته في مجالنا العربي ، و ضمن حيزنا فكري .

ميتاتداولية اللغة الطبيعية

يستعمل المتكلمون اللغة اليومية – بوعي أو من دونه – لتصف – بشكل من الأشكال – لغة التواصل ، حينها يكون قد حدث تغيير في مستوى الكلام ، من اللغة العادية إلى الميتالغة . و لأن هذه الواقعة جرت في سياق تواصل محدد ، يكون بالاستتباع قد حدث انتقال من التواصل إلى الميتاتواصل (metacommunication) . فيشكل هذا الأمر موضوع التحليل الميتاتدوالي .

و لئن عرّف الميتاتواصل بوصفه « تواصل بشأن (مظاهر منتقاة من) التواصل »²⁴⁴ . فإن الميتاتداولية لا تعدو أن تكون تداولية الميتاتواصل. إنها مترتبة عن خاصية رئيسة في اللغات ، هي خاصية الانعكاسية . ذلك أنه « من وجهة نظر لسانية أكثر تحديدا ، يمكن لظاهرة الانعكاسية أن توجد في قدرة المتكلمين على توصيل تواصلهم المنخرطين فيه ، بتحديد و تأكيده أو تعديل التعريفات المعطاة لتواصلهم من قبلهم أو من قبل شركائهم. فالتصويبات المستمرة مع الذات أو اصلاحات الآخر المرافقة ، هي متأصلة في انعكاسية ميتاتداولية ؛ كذلك إعادة التشكيلات ، و التقييمات ، و التعليقات المتأخياتية ، و طلبات التفسير من خلال التفاوض حول الإفهام المتبادل »²⁴⁵.

حين يقول القائل: « لا أملك الكلمات التي أعبر بها عن مدى شعوري »²⁴⁶ ، فنحن بإزاء فعل ميتاتدوالي ، سواء كان القول مجازيا أو على الحقيقة ، ما دام أنه قول على قول . و ينضوى تحت هذا الصنف كل الأقوال المتعلقة بمشكلة القدرة على التعبير بالكلمات* . أو حين يقول: « هل هذه شكوى أم اتهام ؟ » ، فنحن بإزاء فعل ميتاتدوالي آخر ، متعلق بتنظيم الخطاب ، يهدف إلى المراقبة ، منعا لسوء الفهم . إذ يمكن للتعليقات الميتاتواصلية ذات البعد التقييمي و النقدي أن تدخل في هذا الباب²⁴⁷.

أما حين يعلق بقوله: « أنا أتكلم كثيرا » ، أو « هل يمكنك أن تتوقف عن مناقشته كثيرا ؟ » ، يكون قد أنجز قصودا ميتاتداولية ، ضمن استراتيجية اختبار ردات الفعل²⁴⁸ .

* لعلني أجاري به من اقتراح " الكلام على الكلام " تعريبا ل(Metalangage)

²⁴² - يوسف و غليسي ، إشكالية المصطلح في الخطاب لنقدي العربي الجديد ، الطبعة الأولى ، الجزائر ، منشورات الاختلاف ، 2008 ، ص 495 و ما بعدها.

²⁴³ - هي الترجمة التي اعتمدها الدكتورة خولة طالب الإبراهيمي ل(fonction meatlinguistique) في كتابها مبادئ في اللسانيات ، ص 31.

²⁴⁴ - Axel Hubler. **Meatpragmatics**. in. Foundations of pragmatics. 107-136. De Gruyter Mouton. Berlin/Boston. 2011. p182.

²⁴⁵ - Caffi , Claudia . **Metapragmatics** . Concise encyclopedia of pragmatics. Amsterdam: Elsevier. 2009. p625-630.

²⁴⁶ - Axel Hubler. **Meatpragmatics** , p109.

* لعل من بينها ما يسمى بالعوي و الحصر .

²⁴⁷ - Ibid , p110.

²⁴⁸ - Ibid , p111.

ينضاف لما سبق حالة القول المحكي ، سواء المصدر بفعل القول (قال:"..." أو قالت لي إن...) ، أو المستهل بفعل أدائي (وعدني بالامتناع عن التدخين). ولعل أسلوب تقليد المتكلم بقصد التهكم أو تحقيق أثر مضحك ، يعد مرشحا قويا لتأدية فعل ميتاتداولي ، كما هو الأمر في فن المحاكاة الساخرة (parody) أو الباروديا ، و الذي كثيرا ما نجد شبيها به في الكلام اليومي²⁴⁹. ولنا أن نستعير المثال التالي²⁵⁰:

زيد: أحاول أن لا ...

عمرو: أتورط. أم م؟ أليس ذلك صحيحا؟

زيد: نعم...إنه صحيح.

عمرو: لم أتخيل.

زيد: أجده محرجا.

عمرو (متهكما): أووه ، تجده ، هانه ؟

زيد: نعم . حقا. تماما.

عمرو (يقلده): نعم . حقا. تماما.(ثم بصوت مرتفع ، لكن لنفسه): إنه مشمئز!

New York: Pocket Books, 1966:90) *Is Afraid of Virginia Woolf? Who*, (Edward Albee

يظهر المثال الفعل الميتاتواصلي المنجز بواسطة التعليق الأخير من قبل عمرو ، بوصفه تقليدا ساخرا أو باروديا ، و يعبر عنه صراحة بلفظ الاشمئزاز. في حين أنه كثيرا ما يضممر عند المتكلمين.

و إذا كانت الأمثلة السابقة شكلت أقوالا تامة ، فإنه قد يلحق القول الميتاتداولي حذف . كقول من قال : "بصرحة" أو "باختصار" ، تعليقا على قول سابق أو تمهيدا لآخر لاحق . يمكن تقدير تمامه بـ " سأكون صريحا معك " أو " سألخص مقصودي في بعض الكلمات".

و الجدير بالذكر أن هذه العبارات المختصرة يمكن أن ترتبط ببعض مبادئ أو قواعد المحادثة ، فالمتكلم الذي يستعمل لفظة "اختصارا" ، إنما يكون قد راعى قاعدة الكم الغراسية²⁵¹ ، أما إذا قال : " صدقا / حقيقة " فيكون قد وقع اختياره على قاعدة الكيف. بل و قد ترتبط بمبادئ التأديب التي أفاض في بسطها ليتش²⁵² (Leech).

ولما كان أمر دراسة أصناف و أغراض هذه العبارات من الناحية الميتاتداولية يحتاج إلى بحوث تفرد لها . تكفي الإشارة إلى أن هذه العبارات المختصرة ، من بين ما تضطلع به أنها « تساعد المتكلم على تحسين استمرارية المستوى – الأول من المحادثة...بوصفه (وقائيا) مُعينا على تفادي الصدام بين المتفاعلين (و لاحقا الإصلاح) [إصلاح سوء الفهم] ... [كما] يسهل الوصل النصي [بوصفه صنفا من القول الميتاتواصلي المختصر] استقبال الرسالة الأولية الملقاة »²⁵³.

ثم إذا جاز أن نسعي الحاليتين السالفتين من الميتاتواصل ، بالمذكور الميتاتواصلي التام ، و المذكور الميتاتواصلي المختصر ؛ فإن هناك حالة ثالثة ، يمكن أن يطلق عليها بالمضممر الميتاتواصلي . إنه نوع من مراقبة المتكلمين الذاتية ، إذ « يستند

- Ibid , p112. ²⁴⁹

- Ibid , p112. ²⁵⁰

²⁵¹ - بول غرايس ، المنطق والمحادثة ، ترجمة: محمد الشيباني و سيف الدين دغفوس ، في: إطلاقات على النظريات اللسانية و الدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين- مختارات معربة. إشراف: عز الدين المجذوب. الطبعة الأولى، تونس، المجمع التونسي للعلوم و الآداب و الفنون > بيت الحكمة < ، 2012 ، ص 619.

- Axel Hubler. *Meatpragmatics* , p114. ²⁵²

-Ibid , p116. ²⁵³

سلوك الناس التواصل المتبادلي على وعيهم المتبادلي بالمقام و السياق بوصفه محددا مصاحبا للتواصل (co-) (determinants of communication) «²⁵⁴.

و لعل أحسن ما يمثل هذا الوعي، هو الإحالة ؛ و التي من بينها الأشكال الإشارية ، يقول عنها ليفينسون : « تهتم الإشارات بالأساس بالطرق التي تسنن بها اللغات و تُنحَوْنَ خصائص سياق القول أو الحدث الكلامي ، و عليه أيضا تهتم بطرق تأويل الأقوال اعتمادا على التحليل المنصب على سياق ذلك القول»²⁵⁵. إن طبيعة هذا التحليل ، هي من صنف التفكير المتبادلي الذي يتوصل من خلاله المتكلم و السامع إلى إسناد معنى للإشارات .

ينطلق المتكلم عند استعماله الإشارات – لدى من يرى أن الإحالة شرط التماسك الدلالي في النصوص- من أنه « يضع قبل أو عند إنتاج النص سلسلة من الفروض حول السامع...[الذي يكون في مُكنته أن]:

- يعرف مضمون السياق السابق ،
- يعرف نظام اللغة ، الذي يستخدمه المتكلم ، معرفة جيدة ،
- (في الخطاب اليومي) يرى ، و يسمع ، و يعرف ما الأمر الذي يدور حول المتكلم و السامع.
- له معرفة معينة بالعالم على هذا المستوى أو ذاك.
- يكون قادرا على أن يتابع [كم الاستنتاجات المترتبة عن بنية الأقوال المنطقية] ، اتفاقا مع اللغة التي يستخدمها المتكلم»²⁵⁶.

تشكل هذه العناصر قاعدة الوعي المتبادلي التي تمكن المتكلم و السامع من إطلاق أحكام (أقوال) حول موضوعات الواقع [اللغوي] و غير اللغوي ، بامتثاله لأفقية الكلام²⁵⁷.

هناك ملح آخر من الوعي المتبادلي ، هو أدخل في الإضمار من سابقه ، لأنه من النادر أن يرشح على سطح الوعي ؛ أطلق عليه التلميحات التسييقية (contextualization cues) ، يعرفه غامبرز (1982:131):

« تلميح تسييقي ، هو كل خاصية شكل لغوي يساهم في الإشارة إلى مفترضات سياقية . مثلا يمكن لتلميحات أن تمتلك عددا من تحقيقات لغوية تتعلق بذخيرة المشارك اللغوية المعطاة تاريخيا . فالسنن ، و اللهجة ، و إجراءات النقل الأسلوبية ، و بعض [...] الظواهر التطريزية [...] إضافة إلى الانتقاء من بين الخيارات المعجمية و التركيبية ، و التعبيرات الصيغية [المقولة لهجيا] ، و الاستراتيجيات [...] التحادثية ، يمكن أن تمتلك جميعها وظائف تسييقية متماثلة»²⁵⁸.

من ذلك الوسم الإثني الذي يظهر في الكلام بقصد أو عن غير قصد ، عند استعمال القولية اللهجية ، مثلا ؛ لتنتج توقعات من جراء عناصر القول ، فتحدد ردات الفعل المناسبة أو المتعمدة.

هب أن رجلا بمظهر أنيق ، يلج مطعمًا فاخرًا في العاصمة ؛ لكنه عند مخاطبة النادل يطلب الطعام بلهجة البدوي . يمكن للأخير أن يتصرف بطريقة محايدة دفعا للتورط في ما لا يحمد ، أو يمكنه أن يتخذ موقفا متحيزا بشكل من الأشكال ردا على المثير القولي الذي سببه الوسم اللهجي . في كلتا الحالتين ، تتم التوقعات – و ما سيجري بعدها – بناء على التلميحي التسييقي الذي ضمّنه الرجل قوله. فما يقرره الطرفان مما يجب أن يقال ، هو اعتمال الوعي المتبادلي لدهما. و بصريح اللفظ ، هي

- Ibid , p116. ²⁵⁴

-Stephan Levinson .Pragmatics . Cambridge university press .nineteenth printing 2008. p54. ²⁵⁵

²⁵⁶ - كلامير و آخرون ، أساسيات علم لغة النص – مدخل إلى (فروضه و نماذجه و علاقاته و طرائقه و مباحثه) ، ترجمة: سعيد حسن بحيري ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مكتبة زهراء الشرق ، 2009 ، ص 291.

²⁵⁷ - بوهوميل باليك ، الإحالة النصية (الإحالة المتقاطعة)- إسهام في النحو الفوقي ، في: علم لغة النص – نحو آفاق جديدة ، ترجمة: سعيد

حسن بحيري ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مكتبة زهراء الشرق ، 2007 ، ص 213.

- Axel Hubler. Meatpragmatics .p117. ²⁵⁸

المراقبة التي يتمثلها المشاركون في الخطاب ، و يؤدون بها إدارة تفاعلهم ، بوصفها تحكما و ضبطا ، يحيلان على شروط النجاعة و قابلية التأويل²⁵⁹.

ترى كافي (Caffi) أنه « يمكن أن توجد هذه الرقابة في مستوى أعلى ، مثال ذلك حقوق الأدوار التحدثية ، و نوع التتابع و تطور الأدوار الموضوعي ، أو على المستوى الأدنى ، في تركيز الكلام الظاهر على الكلام و على تنظيمه الأدنى (مثل أقوال من قبيل " ما أعنيه هو ... " أو في نص مكتوب ، عنوان الفقرة) . لا يؤدي كل قول أي نوع من العمل و حسب ، بل ويصفه أيضا ، فمغامرة وصف " ما الذي يحصل " (و التي يرجع أمر تصديقها إلى السامع) تلعب دورا رقابيا»²⁶⁰.

و إجمالا ، إذا أردنا أن نضع وصفا لكل ما سبق ، يمكن أن نطلق على الميتاتداولية بالمعاني السالفة ، بفعل تدير الخطاب على حد عبارة كافي (The management of Discourse).

ميتاتداولية المعرفة التفاعلية

لئن كان الضرب السالف من الميتاتداولية أظهر للمتفحص و أبين للدارس ، ما دام أن انتزاعه متأث على مستوى القول الملقى من قبل المتكلم . فإن ضربا آخر من الميتاتداولية لا يتأتى إلا من خلال ما يجزده الناس من تفاعلهم ، بوصفه معرفة يحصلها أعضاء المجتمع الكلامي على مدى الزمن من كل أنواع المحادثات التي يشاركون فيها .

إنها معرفة متعلقة بكليات الحديث ، من قبيل أجناسه ، و أنماطه ، و أساليبه ، و معاييرها ؛ إنه بحث في إمكانية التواصل و شروط نجاعته ، و القواعد التي تنظمه أو المبادئ التي يتأسس عليها ، ليجيب عن سؤال من مثل : كيف يتم التعاون؟ و بم يتم التأدب و اللين²⁶¹ ؟

و غالبا ما تتم دراسة هذه المعرفة الميتاتداولية بالجوء إلى طريقتين :

1- يمكن استقاء معرفة الناس الميتاتداولية من الرصيد المعجمي الذي يوظفونه للإحالة على ظواهر الكلام . فعلى سبيل المثال ، تفرق العرب بين الخبر و النبأ ؛ يقول العسكري في معجم الفروق اللغوية : « النبأ : الخبر الذي له شأن عظيم ... قال الراغب : النبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن . و لا يقال للخبر نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء»²⁶². أي أن الفعل الكلامي الذي ينجز بأنبا أخص – على الأقل – بشرطي أهمية الخبر و تحصيل العلم أو غلبة الظن ، من الفعل الكلامي الذي ينجز بأخبر .

و لعل شبيه به ما نجده عند متكلمي الإنجليزية ، فقد حلل غوسنز (Goossens 1987) أفعال العمل القولي : قال ، أخبر/روى ، حدث ، تكلم (say, tell, talk speak) مبرزاً مدى قدرة التحليل المعمق على كشف نماذج الميتاتداولية التي يصطنعها متكلمو الإنجليزية . فهم يحددون « مختلف الأدوار المتعلقة بالمستقبلين ، فالتسنيين [الاستيضاح و التوضيح] في مثال : روى و قال المستقبل هو الذي يلعب أكبر جزء سلمي ، و في تحدث المتفاعل هو الذي يلعب دورا أكثر نشاطا ، أي الجزء التشاركي ؛ أما في حالة تكلم ، يفرق المتكلم الإنجليزي بين الدورين باستعمال حرف جر مميز ، بين المستقبل بوصفه متفاعلا ، و المستقبل بوصفه متلقيا»²⁶³.

- Caffi , Claudia . **Metapragmatics** .p628.²⁵⁹

- Ibid. p628-629.²⁶⁰

- Ibid.p626.²⁶¹

²⁶² - أبو هلال العسكري ، معجم الفروق اللغوية ، تحقيق : الشيخ بيت الله بيات ، الطبعة الأولى ، قم ، مؤسسة النشر الإسلامي ، 1412 هـ ، ص 529.

- Axel Hubler. **Meatpragmatics** .p121.²⁶³

2- كما يمكن التوصل إلى المعرفة الميتاتداولية المشتركة بسلوك النهج التجريبي ، على غرار ما يفعله محللو الخطاب ، أو علماء الاجتماع ، بتصميم الاستجابات و الاستبيانات الكاشفة عن تقديرات السلوك اللغوي من قبل المتكلمين²⁶⁴ .

من بين ما تم فحصه في المعرفة الميتاتداولية بشكل جيد، ذلك التغير الذي يلحقها ، و المرتبط بتطور أعمار الأطفال ؛ فقد وُجد أن المعرفة الميتاتداولية تتطور بحسب السن. فما بين سني 3 إلى 6 سنوات ، تتعلق معرفة الأطفال الميتاتداولية أساسا بتنفيذ العمل. لكن في سن الـ 6 تنضاف رغبات المستمع إلى الحالات التي يكون فيها [هذه] شرطا تحضيريا غير مشيع. أما في سن الـ 10 تختفي تماما التفسيرات المختصة بإنجاز العمل ، و تظهر تلك التفسيرات المتعلقة بقصود المتكلم وحده أو بقصود المتكلم و رغبات المستمع كليهما (Bernicot and Laval 1996: 120) «²⁶⁵.

غير أن البحث عن كليات المعرفة الميتاتداولية ، تواجهه معضلة الإجماع ؛ مادامت أن تلك المعرفة ليست إلا نماذج خاضعة لنسبية تاريخية ، و مقيدة ثقافيا ، بأطر الفعل الاجتماعي . لذا يكون من اللازم طرح سؤال من قبيل : هل توجد تداولية مشتركة متقاطعة ثقافيا ، تسمح بمقارنة السلوك التواصلي، و إن كان الأمر كذلك ، فعلام تشتمل²⁶⁶ ؟

تعتقد كافي « أن أعضاء جماعة معطاة في مرحلة من تاريخها ، يكونون قادرين على إنتاج و إدراك أنماط العمل اللساني ، و على تحويل – مستقبليا أو بأثر رجعي - قول عمل "وارد token" إلى قول عمل "نمطي type" من خلال وصف س بأنها ع²⁶⁷ « و هي العملية التجريدية التي يمارسها الناس على تداولية أقوالهم ، في ضوء ثلاثة أنواع من الشروط هي²⁶⁸ :

أ- شروط "قابلية التفكير": أي الشروط المضمنة في إمكانية التفكير في أنماط الأعمال. إنها شروط مسجلة في المعجم ، على سبيل المثال ، أسماء أفعال الكلام ، أو القارئ المشيرة إلى القوة المتضمنة في القول ... و لعل المحاولة الأشهر لتحديد القواعد التأسيسية لأفعال الكلام ، ما قام به سيرل (انظر أفعال الكلام 1969).

ب- شروط النجاعة : هي تلك المعرفة المتعلقة بالاستراتيجيات المدركة تداوتيا ، من حيث نظام الأهداف و التوقعات التي تشكل جزءا من تادية العمل ، لجعل مختلف أنماطه تتماشى مع مختلف السياقات الفعلية. و لعل نظرية غرايس (مبدأ التعاون و قواعده) و البحث في ظاهرة التأذب يمثلان نموذجين لهذه الشروط .

ت- شروط قابلية الإدراك : تعنى هذه الشروط بالمعرفة التي تتيح للشركاء في السلوك التواصلي التأويلات المعقولة المحتملة ، فتهتم بأسئلة من قبيل : ما الذي جعلك تفعل هذا؟ ما الذي جعلك تقول هذا ؟ مع قابلية التأويل . الأمر متعلق بدراسة ما تتوافر عليه مختلف اللغات من أنواع الوسائل و الواسمات اللغوية و اللغوية المصاحبة paralinguistics (معجمية ، و كذا صرف-تركيبية ، و نصية ، و تنغيمية) . فطبيعتها التواضعية غير المعطاة مسبقا و لا بشكل نهائي ، بل متغيرة عبر الزمان و المكان . جعلتها تحدد بوضوح مدى التأويلات المعقولة المحتملة ، من قبل المؤولين و شركائهم في السلوك التواصلي ، في إجراء تلقّفي [يتلقف الواحد من الآخر] ، بالتجربة و الخطأ ، من خلال ما تضطلع به الدلالة في عملية التفاوض. و جلي أن أكبر قدر من المعرفة المشتركة بين المتفاعلين ، تتم بإهمال الخطوات الوسيطة في حواراتهم ، و هم يعلمون ذلك ، في أغلب الأحيان ؛ الأمر الذي ينتج لديهم قابلية فهم متبادلة ، لكنها غير متاحة للمراقب الخارجي.

- Ibid.p122.²⁶⁴

- Ibid.p125.²⁶⁵

²⁶⁶ - Caffi,C.op.cit.p626.

²⁶⁷ - loc.cit.

²⁶⁸ - loc.cit.p626-627.

الميتاتداولية ميتانظرية التداولية

تكون الميتاتداولية ميتانظرية ، عندما تصير الدراسات التداولية موضع دراسة ، أي أن يُخضع اللسانيون إنتاجهم النظري إلى النظر و التأمل ؛ فإذا كان النوعان السالفان من الميتاتداولية ينشغلان بمستويات النشاط التداولي لدى المتكلمين ، فإن الميتاتداولية الثالثة هي انعكاس الدراسة على الدراسة . و هي بالضرورة حوار نظري محترف .

تحليل الميتاتداولية بهذا المعنى على ذلك النقاش النظري الرامي إلى شرعنة التداولية ، بوصفها تخصصا ينازع مجالها تقاطعات مع علم الدلالة و اللسانيات الاجتماعية و السيميائيات و غيرها ؛ من حيث اهتماماتها المركزية ، و وظائفها الإبيستمولوجية ، و مناهجها المعتمدة .

لذا تهتم الميتاتداولية بأسئلة من قبيل : ما التداولية؟ و ما موضوعها؟ و ما المصطلحية التي ينبغي عليها تبنيها؟ و ما المناهج و المسلمات التي تفترض نجاعتها في التحليل التداولي؟

فنحن « عندما نقوم بشرح التداولية لطلبة اللسانيات ، نكون قد أنجزنا الميتاتداولية . كما تعدّ كتب التداولية المدرسية تطبيقا على الميتاتداولية . و عليه ليست الميتاتداولية بهذا المعنى العام انعكاس تداولي على التداولية [أي ليست تداولية انعكاسية] ... وإنما هي مقارنة للطرق النظرية و المنهجية التي تصف التداولية »²⁶⁹.

لكن الميتاتداولية بهذا المعنى لا تسلم - على الأقل - من مشكلتين تدعوان للمساءلة ، الأولى تكاد تنسحب على كل جهد نظري في العلوم الاجتماعية ؛ و الثانية تتعلق بالتداولية من جهة حصول وصف يميزها ، لكن ثمرة هذا الوصف لا يجعلها تتفرد بهذا المزج النظري ، عن غيرها من التخصصات.

أما الأولى فتتمثل في صعوبة التنصل من " التحيز الإيديولوجي " ، فالحياد في التعامل مع المعطيات التداولية بعيد المنال ؛ يتساءل من يؤيد هذه الدعوى :

« ما موقف الباحث إزاء جماعة الكلام التي يريد أن يستكشفها في موضوع ما ، بما في ذلك ما تعلق بالمخبر [الراوي اللغوي] الفرد ؟ هل في الموقف أي من التضمينات السياسية ؟ و هل على المستوى المنهجي ، تكون الأسئلة المطروحة (مشافهة أو عن طريق الاستبيان) صحيحة من الناحية السياسية ؟ »²⁷⁰.

ليخلص أنه ليس من باب الإدانة استحضار الوسم الإيديولوجي ، إذ يقول:

« لا يمكن أخذ حساسية البعد الإيديولوجي في البحث التداولي على أنه أمر مسلم به ؛ و على ما يبدو ، في الواقع ، أنه ما يزال من الضروري استدعاؤه »²⁷¹.

و إذا أردنا أن نقف على ما يدعم هذه الدعوى من موروثنا اللغوي ، لوجدنا أحسن مثال في التحليل التداولي الذي ميّز " دلائل الإعجاز " ، و ذلك باستدعائه المنزع الإيديولوجي الأشعري ، و لا سيما في مفهوم "المزية" الذي رسّخ به الجرجاني مبدأ الأشاعرة في إثبات الإعجاز ، و المتمثل في الانطلاق من غير المرئي (أو المسموع أو المعنوي أو غير الحسي) إلى المرئي ، أي من المدلول إلى الدال²⁷² . يقول الجرجاني :

« و إذا بطل أن يكون ترتيب اللفظ مطلوباً بحال ، و لم يكن المطلوب أبداً إلا ترتيب المعاني ، و كان معول هذا المخالف على ذلك ، فقد اضمحلّ كلامه ، و بان أنه ليس لمن حام في حديث المزية و الإعجاز حول "اللفظ" ، و رام أن يجعله السبب في

²⁶⁹ - Wolfman Publiz Axel Hubler. Meatpragmatics in Use. John Benjamins Publishing Company.

Amsterdam/Philadelphia.2007. p6.

²⁷⁰ - Axel Hubler. Meatpragmatics.in.Foundations of pragmatics.107-136. De Gruyter Mouton. Berlin/Boston.2011.p128.

²⁷¹ - ibid.p127.

²⁷² - سعيد حسن بحيري ، القصد و التفسير في نظرية النظم ، الأنجلومصرية ، القاهرة . 1995 . ص4.

هذه الفضيلة ، إلا التسكع في الحيرة ، و الخروج عن فاسد من القول إلى مثله »²⁷³. ثم نجد أنه يتصد المزية وفق هذا المبدأ في كثير من الشواهد التطبيقية ، النحوية و البلاغية ، و لا يني يؤكد على ما يبرز البعد الإيديولوجي الأشعري ، المناهض لحساسية أيديولوجية أخرى ، هي الإيديولوجية المعتزلية.

و أما الثانية فالمشكلة منهجية ، و ذلك عندما تصاغ الفرضيات النظرية - إظهارا أو إضممارا - يُنتقى لها عينة تصدق تلك المفترضات، و تُعرض و كأنها اقتضتها ، و تعمم على أنها هي الحالة الأوفق تمثيلا و الأكثر نجاعة ، حينئذ تصير المقاربة التداولية تسويغية ؛ لم يسلم من ذلك حتى الشيوخ الأوائل الذين نظروا للفعل الكلامي .

« فقد اشتغل كل من أوستين و سيرل على " جملة واحدة- حالة مبدأ واحد " . بمعنى ، أنه من أجل توضيح نظريتهما ، استعملتا الأمثلة التي تشكل ميزة لما يروونه بوصفه " حالة " تعبر عما هما بصدد مناقشته ، مثل توسلها بنوع مخصوص من الفعل الكلامي »²⁷⁴.

بالرغم من ذلك ، لا يكون الخطاب الميتانظري خطابا ميتاتداوليا إلا في التداولية²⁷⁵ ، و هذا هو الوصف الذي يميز التداولية عن غيرها من التخصصات ؛ يوضح من تأدى به الأمر إلى هذه النتيجة بفقرة يقتبسها من مؤلف مشهور في التداولية ، على النحو التالي :

« الفرق الأكثر جذرية بين مقاربة غرايس و بين نظرية الملائمة يتمثل في أن مبدأ غرايس و قواعده هي معايير يجب على المتواصلين و المستمعين معرفتها للتواصل بشكل كاف . وعموما يحافظ المتواصلون على المعايير ، لكن أيضا يمكن أن ينتهكونها لإحراز آثار معينة ؛ كما يستعمل المستمعون معرفتهم بهذه القواعد لتفسير السلوك التواصلية. على النقيض من ذلك ، يعد مبدأ الملائمة تعميما للتواصل الاشاري - الاستدلالي. فالمتواصلون و المستمعون لا يحتاجون معرفة مبدأ الملائمة للتواصل أكثر من احتياجهم لمعرفة المبادئ الوراثة [المولدة] لإعادة الإنتاج [...] »²⁷⁶.

من الجلي أن صاحبي هذا الكلام ، يقصدان عرض نجاعة مفهوم الملائمة من وجهة نظرهما ، و بهذا المعنى يعدّ كلامهما ميتانظريا ، بوصفه انعكاس التنظير على النظرية ؛ لكن من جهة ثانية يشرحان القدرة على الفعل التواصلية ، بما أنه إشاري - استدلال ، و ينجزانه في الآن نفسه ، و هو بهذا المعنى ميتاتداولي .

الأمر الذي يجعل ميتانظرية التداولية ، أي الميتاتداولية بالمعنى الأخير ، تقع في مفارقة تسميها كافي بالمفارقة الميتاتداولية ، و تشرحها على النحو التالي :

« هذه هي المفارقة الميتاتداولية ، ففي الكلام اليومي ، إذا أردت أن أفعل شيئا لا يجب علي أن أقول إنني سأفعله. فلكي "أصرح" لا يجب علي أن أقول " أصرح بـ " ، و إذا فعلت ، فهذا يعني أنني أفعل شيئا آخر. لكي أنجز عملا ، يجب أن أتجنب تسميته »²⁷⁷.

أما على الصعيد المنهجي ، فتقرر:

« المفارقة الميتاتداولية تتمثل في أن الرقابة الميتانظرية التقليدية النازلة [من التصور إلى التفاصيل] لا تكون متأنية إلا إذا كانت مخفية »²⁷⁸.

²⁷³ - عبد القاهر الجرجاني . دلائل الإعجاز . الطبعة الخامسة . تحقيق: محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1424هـ - 2004م . ص

²⁷⁴ - Axel ,H. Meatpragmatics.p128-129.

²⁷⁵ - Ibid.p129.

²⁷⁶ - Dan Sperber and Deirdre Wilson . Relevance: communication and cognition. Blackwell Oxford UK & Cambridge USA.

Second edition 1996 .p162.

- Caffi , Claudia . Metapragmatics .p629. ²⁷⁷

- Ibid. p630. ²⁷⁸

فإذا كانت هذه المفارقة ملازمة للغة الطبيعية ، من جراء اتصافها بخاصية " الانعكاسية " ، فإن هذه الظاهرة تعدّ صحيحة تعكس غناء اللغة الطبيعية ، بحسب من درس المفارقات التداولية والمنطقية في الاستعمالي اللغوي²⁷⁹.

لذا لا يجب أن نرمي البحث الميتادولي بالضحالة، بل بالعكس ، ينبئ الأمر عن تعقد و عمق ، يغريان بالتوغل في الاستكشاف والتجريب ، و مقاربات استثمار آثار الميتاداولية.

آثار اليمتاداولية

لا شك أن البحث في الميتاداولية بكل معانيها السابقة تستدعي جهودا بينتخصصية (interdisciplinary) . لكن الوعي الميتادولي له أهمية خاصة في القدرة على الميتاتواصل ، إنه يتعدى أن يكون شرطا ضروريا لنجاح التواصل ، إلى الارتباط العميق بمشكلة الوعي بالذات و بالآخرين . لأن الميتاداولية تمتلك طاقة علاجية ، مثل ما للفلسفة و الأنثروبولوجيا . حينما ينظر المتكلم أو الجماعة الاجتماعية نقديا إلى ذواتهم ، على كلا المستويين النظري و اليومي ، لعل ذلك يجعلهم يقومون بتصحيحات أو أحكام أو تعليقات موضحة لخطاباتهم ، فتتكسر المطابقة الخطيرة بين الذات و وجهة النظر ، و تنفتح الطريق أمام شرعية آراء الآخرين²⁸⁰.

و لعل أهم ما يفعله الوعي الميتادولي ، هو أن يملك المتكلم بأن لا يلتزم بالأدوار السوسيو التواصلية المأسسة ، و بأن لا تستغرقه كلياً في الرتبة و انسداد الخطاب .

تبقى الحاجة إلى تطبيق ذلك على الممارسة الخطابية و التنظيرية في اللغة العربية ، و في الترجمة منها و إليها ، من ألح ما يطرح على المشتغلين بالفكر اللساني.

المراجع باللغة العربية

1. أبو هلال العسكري ، معجم الفروق اللغوية ، تحقيق : الشيخ بيت الله بيات ، الطبعة الأولى ، قم ، مؤسسة النشر الإسلامي ، 1412هـ .
2. بول غرايس ، المنطق و المحادثة ، ترجمة: محمد الشيباني و سيف الدين دغفوس ، في : إطلاقات على النظريات اللسانية و الدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين- مختارات معربة . إشراف : عز الدين المجذوب . الطبعة الأولى ، تونس ، المجمع التونسي للعلوم و الآداب و الفنون > بيت الحكمة < ، 2012 .
3. بوهوميل باليك ، الإحالة النصية (الإحالة المتقاطعة)- إسهام في النحو الفوقي ، في: علم لغة النص - نحو آفاق جديدة ، ترجمة: سعيد حسن بحيري ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مكتبة زهراء الشرق ، 2007.
4. حسان الباهي ، اللغة و المنطق - بحث في المفارقات ، الطبعة الأولى ، الرباط ، المركز الثقافي العربي - دار الأمان ، 2000.
5. سعيد حسن بحيري ، القصد و التفسير في نظرية النظم ، الأنجلومصرية ، القاهرة . 1995 .
6. عبد القاهر الجرجاني . دلائل الإعجاز . الطبعة الخامسة . تحقيق: محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1424هـ - 2004م .
7. كلامير و آخرون ، أساسيات علم لغة النص - مدخل إلى (فروضه و نماذجه و علاقاته و طرائقه و مباحثه) ، ترجمة: سعيد حسن بحيري ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مكتبة زهراء الشرق ، 2009.
8. يوسف و غليسي ، إشكالية المصطلح في الخطاب لنقدي العربي الجديد ، الطبعة الأولى ، الجزائر ، منشورات الاختلاف ، 2008 .

²⁷⁹ - حسان الباهي ، اللغة و المنطق - بحث في المفارقات ، الطبعة الأولى ، الرباط ، المركز الثقافي العربي - دار الأمان ، 2000 ، ص 284

²⁸⁰ - Caffi , Claudia . Metapragmatics .p629.

المراجع باللغة الأجنبية

- ¹ - Axel Hubler. **Meatpragmatics.in**.Foundations of pragmatics.107-136. De Gruyter Mouton. Berlin/Boston.2011.
- ²- Caffi , Claudia . **Metapragmatics** . Concise encyclopedia of pragmatics. Amsterdam: Elsevier. 2009.
- ³-Carles F.Hockett.. **The Problem of universals in language** 1-29.in.Universals of Language. Joseph h. greenberg.2nd editon.M.I.T press.1966.
- ⁴- Dan Sperber and Deirdre Wilson . **Relevance: communication and cognition**. Blackwell Oxford UK &- Cambridge USA. Second edition 1996 .
- ⁵-Stephan Levinson . **Pragmatics** . Cambridge university press .nineteenth printing 2008.
- ⁶ - Wolfman Publiz Axel Hubler. **Meatpragmatics in Use**. John Benjamins Publishing Company. Amsterdam/Philadelphia.2007.